مقابلاً من ثواب أو عقاب ، كما أن في ذكر النبأ مقدَّماً تقريعاً لمن يظلمون أنفسهم بالبغى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا(١) وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

والماء الذى ينزل من السماء ، هو الماء الصالح للرى وللسقى ؛ لأن المياه الموجودة فى الوجود ، هى مخازن للحياة ، وغالباً ما تكون مالحة ، كمياه البحار والمحيطات، وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ لحمايتها من العفن والفساد، ثم تتم عملية تقطير المياه بأشعة الشمس التى تحوّل الماء إلى بخار، ويتجمع البخار كسحاب، ثم يسقط ماء عَذْباً مقطراً صالحاً للشرب والرّى .

---

(١) الزخرفة : الزينة . قال ابن سيده : الزخرف : الذهب ، هذا الأصل ، ثم سُمّى كل مموَّه مزوَّر به . وبيت مزخرف . وزخرف البيت : زيَّنه وأكمله . وفى الحديث : أن النبى ﷺ لم يدخل الكعبة حتى أمر بالزخرف فنُحِّىَ . وقوله تعالى : ﴿إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [يونس] المراد بالزخرف هنا : زينة الحياة الدنيا ومتاعها الزائل الذى يخدع بريقه أعين الغافلين عن الآخرة وما فيها من نعيم مقيم . [اللسان : مادة (زخرف) - بتصرف] . وقال القرطبى : زخرفها ، أى : حُسنها وزينتها . والزخرف : كمال حسن الشىء ومنه قيل للذهب زخرف (تفسير القرطبى : ٤/ ٣٢٥٤) . وقال ابن كثير : زخرفها ، أى : زينتها الفانية . وازيّنت ، أى : حَسُنت بما خرج فى رُبَاها من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان (تفسير ابن كثير : ٢ / ٤١٣) .

والحق سبحانه يقول هنا: ﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس]

والاختلاط: اجتماع شيئين أو أشياء على هيئة الانفصال بحيث يمكن أن تعزل هذا عن ذاك ، فإن خلطت بعضاً من حبات الفول مع بعض من حبّات الترمس ؛ فأنت تستطيع أن تفصل أيا منهما عن الأخرى ، ولكن هناك لوناً آخر من جمع الأشياء على هيئة المزج ، مثلما تعصر ليمونة على ماء محلّى بالسكر ، وهذا ينتج عنه ذوبان كل جزىء من الليمون والسكر فى جزيئات الماء.

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ﴾ وقد يُفهم من ذلك أن الماء والنبات قد اختلطا معاً ، لكن النبات - كما نعلم - ككائن حى مخلوق من الماء مصداقاً لقول الحق سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء]

وهنا لا بد أن نلتفت إلى الفارق بين «باء» الخلط ، و«باء» السببية [1] فالباء هنا فى هذه الآية هى باء السببية ، وبذلك يكون المعنى: فاختلط بسببه نبات الأرض. وأنت ترى بعد سقوط المطر على الأرض أن المياه تغطى الأرض ، ثم تجد بعد ذلك بأيام أو أسابيع ، أن سطح الأرض مغطى بالزروع ، وكلها مختلطة متشابكة ، وكلما تشابكت الزروع مع بعضها فهذا دليل على أن الرى موجود والخصوبة فى هذه الأرض عالية، وهذا نتيجة تفاعل الماء مع التربة.

(١) الباء: حرف يجر الاسم الظاهر والمضمر ، ويقع أصلياً أو زائداً ، ويؤدى عدّة معان ، أشهرها خمسة عشر ، هى: الإلصاق ، والاستعانة ، والسببية ، والتعدية ، والظرفية ، والعوض ، والمصاحبة ، والتبعيض ، والمجاوزة ، والاستعلاء ، والتوكيد ، وأن تكون بمعنى كلمة (بدل) ، وأن تكون بمعنى كلمة (إلى) . انظر تفصيل ذلك فى النحو الوافى (٢/ ٤٩٠ - ٤٩٧).

أما إن كانت الأرض غير خصبة ، فأنت تجد نَبْتة فى منطقة من الأرض ، وأخرى متباعدة عنها ، وهذا ما يطلق عليه أهل الريف المصرى أثناء زراعة الذرة - على سبيل المثال : «الذرة تفلس» أى: أن كل عود من أعواد الذرة يتباعد عن الآخر نتيجة عدم خصوبة الأرض.

إذن: فخصوبة الأرض لها أساس هام فى الإنبات والماء موجود لإذابة عناصر الغذاء للنبات ، فتنتشر بها جذور النبات.

وإن سمحتْ لك الظروف بزيارة المراكز العلمية للزراعة فى «طوكيو» أو «كاليفورنيا» ؛ فلسوف ترى أنهم يزرعون النباتات على خيوط رفيعة ؛ تُسقى بالماء الذى يحتوى على عناصر الغذاء اللازمة للإنبات ؛ لأنهم وجدوا أن أى نبات يأخذ من الأرض المواد اللازمة لإنباته بما لا يتجاوز خمسة فى المائة من وزنه ، ويأخذ من الهواء خمسة وتسعين فى المائة من وزنه .

إذن: فالمطر النازل من السماء خلال الهواء هو الذى يذيب عناصر الأرض ؛ ليمتصها النبات.

والحق سبحانه وتعالى هنا أراد أن يضرب لنا المثل ، والمثل: هو قول شُبِّه مَضْرِبُهُ بمَوْلده ،أى : شىء نريد أن نمثله بشىء ، ولا بد أن يكون الشىء الممثَّل بهِ معلوماً ، والشىء المأخوذ كمثل هو الذى نريد أن نوضح صورته ؛ ولذلك لا يصح أن نمثل مجهولاً بمجهول ، وإنما نمثل مجهولاً بمعلوم.

وتجد من يقول لك: ألا تعرف فلاناً ؟ فتقول: لا أعرفه ، فيرد عليك صاحبك: إنه مثل فلان فى الشكل. وهكذا عرَّفْتَ المجهول بمعلوم.

وبعض من الذين يحاولون الاعتراض على القرآن ، دخلوا من هذه الناحية ، وقالوا: إذا كان الشىء مجهولاً ونريد أن نعرِّف به ، ألا نعرِّفه

بمعلوم ؟ فما بال الله - سبحانه وتعالى - يقول في شجرة الزقوم [1] : ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا [2] كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥)﴾ [الصافات]

ما بال الله سبحانه يبين شجرة الزقوم ، وهى شجرة فى النار لا نعرفها ، فيعرِّفها للمؤمنين به بأن طلعها يشبه رءوس الشياطين ، وبذلك يكون سبحانه قد مثَّل مجهولاً بمجهول . والذين قالوا ذلك فاتهم أن الذى يتكلم هو الله تعالى . وقد أراد الحق سبحانه أن يُمثِّل لنا شجرة الزقوم بشىء بشع معلوم لنا ، والبشع المعلوم هو الشيطان .

وشاء الحق سبحانه ألا يحدد البشاعة ؛ حتى لا ينقضى التشبيه ؛ لأن الشىء قد يكون بشعاً فى نظرك ، وغير بشع فى نظر غيرك . ويريد الله سبحانه أن يبشع طلع شجرة الزقوم ؛ فاختار الشىء المتفق على بشاعته ، وهو رءوس الشياطين ، وليتصور كل إنسان صورة الشيطان ، بما ينفر منه ويقبِّحه ، وهكذا تتجلَّى عظمة الحق سبحانه فى أن جعل شكل الشيطان مبهماً [3] .

وأما المثل الذى نحن بصدده هنا وهو تشبيه الحياة الدنيا بأنها كالماء الذى أنزله الحق سبحانه من السماء فاختلط به نبات الأرض ، والحياة الدنيا نحن ندرك بعضها ، وكلٌ منا يدرك فترة منها ، ولم يدرك أولها ، وقد لايدرك آخرها ، فجاء الحق سبحانه بمثل يراه كل واحد منا ، وهو الزرع

---

(١) شجرة الزقوم هى الشجرة الملعونة فى القرآن ، قال تعالى : ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ .. (٦٠)﴾ [الإسراء] وأخبر الله تعالى فى كتابه الكريم أنها تخرج فى أصل الجحيم . وثمرها هو الزقوم وهو طعام أهل النار . [اللسان : مادة (زقم) - بتصرف] .

(٢) الطلع : غلاف يشبه الكوز ، ينفتح عن حَبّ منضود ، فيه مادة إخصاب النخلة [المعجم الوسيط : مادة (طلع)] .

(٣) مبهماً : خافياً . واستبهم الأمر إذا استغلق . والمبهم سمى كذلك لأنه أبهم عن البيان فلم يُجعل عليه دليل . ومنه قيل لما لا ينطق «بهيمة» [اللسان : مادة (بهم)] .

الذى يرتوى بالمطر ، فأراد الحق سبحانه أن يجمع لنا صورة الدنيا فى مثل معروف لنا جميعاً ، وندركه جميعاً ؛ فندرك ما سبق ،وما يلحق ، فكلّ شىء يأخذ حظه فى الازدهار ، والجمال ، ثم ينتهى ، كذلك الدنيا.

يقول الحق سبحانه :

﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس]

والزخرف : هو الشىء الجميل المستميل للنفس وتُسرُّ به حينما تراه ، وتتزين الدنيا بالألوان المتنوعة فى تنسيق بديع ، ثم يصبح كل ذلك حصيداً [1] وهذا ما نراه فى حياتنا ، وهكذا جمع الله سبحانه وتعالى مثل الحياة الدنيا من أولها إلى آخرها بالصورة المرئية لكل إنسان ، حتى لا يخدع إنسان بزخرف الدنيا ولا بزينتها.

والحق سبحانه هو القائل :

﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا [2] ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا [3] ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا [4] ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا

(١) حصيداً : محصودة مقطوعة لا شىء فيها ، قال أبو عبيدة : الحصيد : المستأصل . [تفسير القرطبى ٤ / ٣٢٥٤].

(٢) قال الحسن البصرى : القضب : العلف الذى تأكله الدواب [تفسير ابن كثير : ٤/ ٤٧٢ - بتصرف].

(٣) حدائق غُلباً ، أى : بساتين . وقيل : هى نخل غلاظ كرام . وقيل : هى الشجر الذى يُستظل به . [تفسير ابن كثير : ٤/ ٤٧٢].

(٤) قال ابن عباس : الأب ما أنبتت الأرض مما يأكله الدواب ولا يأكله الناس . وقيل : هو الحشيش للبهائم وقيل : الأب الكلأ . [تفسير ابن كثير : ٤ / ٤٧٢ ، ٤٧٣].

جَاءَتِ الصَّاخَّةُ [1] ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ . [عبس]

إذن: فالدنيا بكل جمالها الذى تراه إنما تذوى [2] ، وما تراه من بديع ألوانها إنما يذبل ، ومهما ازدانت الدنيا فهى إلى زوال ، فإياك أن تبغى ؛ لأن البغى فيه متاع الدنيا ، والدنيا كلها إلى زوال ؛ كزوال الروض التى ينزل عليها المطر ؛ فتنبت الأرض الأزهار ، ثم يذوى كل ذلك.

وقد قال الحق سبحانه:

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ [3] ﴿٢٠﴾ ﴾ . [القلم]

إذن: فالدنيا بهذا الشكل وعلى هذا الحال.

---

(١) الصاخة: قال ابن عباس: هى اسم من أسماء يوم القيامة عظّمه الله وحذّر منه. وقال البغوى: الصاخة يعنى: صيحة يوم القيامة ، سُمّيت بذلك ؛ لأنها تصخ الأسماع ، أى: تبالغ فى إسماعها حتى تكاد تصمها. [تفسير ابن كثير: ٤ / ٤٧٣].

(٢) تذوى: تذبل. ذوى النبات: أصابه الحر والعطش فَذَبُلَ وضعف. وذوى عود النبات: يبس. [اللسان: مادة (ذوى)].

(٣) هذا مثل ضربه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة وأعطاهم من النعمة الجميلة ، وهو بعثة محمد ﷺ إليهم ، فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة ، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾ أى: اختبرناهم ﴿كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ وهى البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ أى: حلفوا فيما بينهم ليَجُذُّنّ ثمرها (يجمعونه) ليلاً لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل ؛ ليتوفر ثمرها عليهم ، ولا يتصدقوا منه بشىء. ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ أى: فيما حلفوا به ، ولهذا حَنَّثهم الله فى أيمانهم ، فقال تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ أى: أصابتها آفة سماوية ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ قال ابن عباس: أى: كالليل الأسود. وقال الثورى والسدى: أى: هشيماً يبساً. [تفسير ابن كثير: ٤ / ٤٠٦].

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ (٢٤) ﴾ [يونس]

والأرض تتزين بأمر ربها ، والحق سبحانه ينسب الإدراكات إلى ما لا نعرف أن له عقلاً أو إرادة . ألم يقل الحق سبحانه فى قصة العبد الصالح : ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ [1] .. (٧٧) ﴾ . [الكهف]

فهل يملك الجدار إرادة أن ينقضّ ؟ ولو حققنا الأمر جيداً ؛ لوجدنا أن الحق سبحانه جعل لكل كائن فى الوجود حياة تناسبه ، وله إرادة تناسبه ، وله انفعال يناسبه . وقد ضرب الحق سبحانه لنا فى ذلك صوراً شتّى ، فنجد أن الشىء الذى يعزُّ على عقولنا أن تفهمه يبرز لنا ببيان من الله تعالى .

ومثال هذا : معرفة الهدهد فى قصة سليمان عليه السلام بالتوحيد ، وكيف أخبر هذا الهدهد سيدنا سليمان عليه السلام بحكاية مملكة سبأ حيث يسجد الناس هناك للشمس من دون الله ، فكأن الهدهد قد علم مَنْ يستحق السجود له إذ قال : ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ [2] فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٢٥) ﴾ . [النمل]

ومن كان يظن أن الهدهد ، وهو طائر ، يكون على هذه البصيرة بالعقائد على أصفى ما تكون؟ لأن الحق سبحانه أراد أن يبيّن لنا أن هذا

---

(١) يريد أن ينقض : الانقضاض السقوط بسرعة وإضافة إرادة الانقضاض إلى الجدار مجاز عن قرب سقوطه ، وذلك على التشبيه بحال مَنْ يريد الفعل ، وفى كتاب الله قوله : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ .. (١٥٤) ﴾ [الأعراف] وقوله : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ .. (٢١) ﴾ [محمد] [تفسير سورة الكهف للشيخ محمد محمد المدنى - بتصرف] .

(٢) الخبء : ما خُبِىء . والخبء الذى فى السموات هو المطر ، والخبء الذى فى الأرض هو النبات . وقيل : الخبء كل ما غاب ، فيكون المعنى : يعلم الغيب فى السموات والأرض . [اللسان : مادة (خبأ)] .

الطائر لا هوى له يفسد عقيدته ، وأن أهواءنا هى التى تفسد العقائد ، ومَنْ أعطاه الله سبحانه البدائل هو الذى يفسد الاختيار ما دام لا يحرس الاختيار بالإيمان ، وأن يختار فى ضوء منهج الله تعالى.

ونحن نرى أن ما دون الإنسان من طائر أو حيوان لا يفسد شيئاً ؛ لأن غريزته تقوده ، فلا نجد حيواناً يأكل فوق طاقته ، لكننا نجد إنساناً يصيب نفسه بالتخمة [1] ، ولا نجد حماراً يقفز فوق قناة من الماء لا يقدر عليها ، بل نراه وهو يتراجع عنها ، ولكنا نجد إنساناً يشمر عن ساعديه [2] ؛ ليقفز فوق قناة مياه ؛ فيقع فيها [3].

إذن : فنحن بأهوائنا التى تسيطر على غرائزنا نوقع أنفسنا فيما يضرنا ، ما لم نحرس أنفسنا بمنهج الله سبحانه وتعالى. ونجد فى مثال الهدهد صفاءً عقدياً فى التوحيد كأصفى ما يكون المتصوِّفة ، ويأتى بما يهمه ﴿ **أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ لأن الخبء هو رزق الهدهد ، فهو لا يأكل من الشىء الظاهر على سطح الأرض ، بل يضرب بمنقاره الأرض ؛ ليأتى لنفسه بما يطعمه .

ويعطينا الحق سبحانه مثلاً آخر بالنملة التى قالت: ﴿ **يَـٰأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَـٰكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨)** ﴾.

[النمل]

---

(١) التخمة : الذى يصيب الإنسان من الطعام إذا استوخمه أى : استثقله . وقد تطلق «التخمة» على كثرة الطعام والمبالغة فى الأكل والشرب حتى يثقل على الجسم هضم الطعام ؛ فيصاب الإنسان بالوخم والثقل وعدم القدرة على الحركة . [اللسان : مادة وخم].

(٢) الساعد : ملتقى الزندين من عند المرفق إلى الرسغ . والساعد : ساعد الذراع ، وهو ما بين الزندين والمرفق ، سُمِّى ساعداً لمساعدته الكفَّ . وجمع الساعد : سواعد . [اللسان : مادة (سعد)] .

(٣) وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَـٰنُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢)** ﴾ [الأحزاب].

وهذه دقة عدالة من هذه النملة ، فإنها لم تقل: إن سليمان وجنوده سيحطمون أخواتها من النمل ظلمًا لهم ، بل قالت : ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ لأنكم لا تظهرون تحت أرجلهم.

إذن: كل كائن فى الوجود له حياة تناسبه ، ولكن الآفة أننا نريد أن نتصور الحياة فى كل كائن ، كتصورها فى الكائن الأعلى وهو الإنسان.

ولا بد لنا أن نعلم أن النبات له حياة تناسبه ، والحيوان له حياة تناسبه ، والجماد له حياة تناسبه ، وكل شىء فى الحياة له لون من الحياة المناسبة له.

وقد أوضحنا من قبل أن الحق سبحانه قد قال: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ .. (٤٢)﴾ . [الأنفال]

والهلاك مقابل للحياة ، والحياة مقابلة للموت ، والهلاك يساوى الموت. والحق سبحانه يصور الحالة يوم القيامة فيقول: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ..(٨٨)﴾ . [القصص]

إذن: فالجماد هالك ، ولكنه يتمتع بلون من الحياة لا نعرفه ، وكذلك كل كائن له حياة تناسبه ، والآفة أن الإنسان يريد أن يعرِّف الحياة التى فى الجماد كالحياة فى الإنسان.

وانظر إلى دقة الأداء القرآنى فى قوله الحق : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا(٢٤)﴾ [يونس]

وقد جاء هذا القول من قبل أن يتقدم العلم ويثبت أن الأرض تشبه الكرة ، وأنها تدور ، وأن كل ليل يقابله نهار ، وكذلك جاء قول الحق

سبحانه: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى .. (٩٨) ﴾. [الأعراف]

إذن: فأمر الله سبحانه يتحقق حين يشاء، وهو أمر واحد عند من يكونون في ضحى أو في ليل.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا [1] كَأَن لَّمْ تَغْنَ [2] بِالأَمْسِ (٢٤) ﴾. [يونس]

أي: كأنها لم يكن لها وجود.

وينهي الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) ﴾ [يونس]

فإذا كانت الدنيا كلها مثل عملية الزرع في الأرض الذي ينمو ويزدهر ويزدان، ثم ينتهي، ألا يجب أن ننتبه إلى أن كل زخرف إلى زوال؛ وعلينا ألا نفتتن بزينة الدنيا ومتاعها في شيء، وأن نحرص على ألا نبغي في الأرض؛ لأن البغي متاع الحياة الدنيا، وهي إلى زوال [3].

ونجد القرآن يأتي بذكر التفصيل للآيات، ويتبع ذلك بأن هذا التفصيل لقوم «يتفكرون»، أو «يتذكرون»، أو «يعقلون»، أو «يتدبرون».

وكل هذه عمليات تتناول المعلوم الواحد في مراحل متعددة، فالتعقُّل:

(١) الحصيد والحصد: الزرع المحصود بعد ما يحصد، والمراد بالحصيد هنا: تشبيه وتصوير إهلاك الله للأرض في نهاية الدنيا بما يحدث عند حصد النبات من اقتلاعه وتقطيعه. [اللسان: مادة (حصد) - بتصرف].

(٢) ﴿ كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ ﴾ أي: لم تكن عامرة، والمغاني في اللغة: المنازل التي يعمرها الناس. وقال قتادة: كأن لم تنعم. وقرأ قتادة (يغن) بالياء، يذهب به إلى الزخرف، يعني: فكما يهلك الزرع هكذا، كذلك الدنيا. [تفسير القرطبي: ٤/ ٣٢٥٤].

(٣) يقول الله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) ﴾ [الرحمن].

هو أن تأتى بالمقدمات ؛ لتستنبط ولترى إلى أى نتائج تصل . والتذكُّر يعنى : ألا تنسى وألا تغفل عن الأمر الهام . والتفكُّر : هو أن تُعْمل الفكر . والفارق بين الفكر والعقل هو أن العقل أداة التفكُّر . والتدبُّر[1] : هو ألا تنظر إلى ظواهر الأشياء ، بل إلى المعطيات الخفية فى أى أمر .

والحق سبحانه يقول : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ .. (٨٢) ﴾ . [النساء]

أى : اجعل بصيرتك تمحِّص البدايات والنهايات ؛ لتعرف أن المرجع والمصير إلى الله تعالى . والعاقل هو مَنْ يعدّ نفسه للقاء الله سبحانه ، وقد يرهق نفسه فى الدنيا الفانية ؛ ليستريح فى الآخرة .

وإذا نظرنا إلى الدنيا والآخرة من خلال معادلة تجارية ، سنجد أن الآخرة لا بد وأن ترجح كفتها ؛ لأن عمر الإنسان فى الدنيا مظنون ، ولا يعرف فرد هل يحيا فى الدنيا عاماً أو عشرة أو سبعين أو مائة عام .

ومهما طالت الدنيا مع كل الخَلْق فهى منتهية ، والنعيم فيها على قدر إمكاناتك البشرية وعلى قدر تصورك للنعيم ، أما الآخرة فهى بلا نهاية ، وأمر الإنسان فيها متيقَّن ، والنعيم فيها على قدر عطاءات الله تعالى ومراده سبحانه للنعيم . فإن قارنت هذا بذاك وقارنت الدنيا بالآخرة لرجحتْ كفّة الآخرة .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ[2] لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ . [العنكبوت]

---

(١) التدبر فى الأمر . التفكر فيه وأن تنظر إلى ما تؤول إليه عاقبته ، وفلان ما يدرى قبال الأمر من دباره ، أى : أوّله من آخره . ويقال : إن فلاناً لو استقبل من أمره ما استدبره لهُدِىَ لوجهة أمره ، أى : لو علم فى بدء أمره ما علمه فى آخره لاسترشد لأمره . قال تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٢٩) ﴾ [ص] . [اللسان : مادة (دبر) - بتصرف] .

(٢) ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ .. (٦٤) ﴾ [العنكبوت] أى : هى الحياة الدائمة التى لا زوال لها ولا انقضاء ، بل هى مستمرة أبد الآباد . [تفسير ابن كثير : ٣/ ٤٢١] .

وفى قوله سبحانه: ﴿لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ . مبالغة فى كونها حياة لا فناء فيها. فاتبع منهج الله سبحانه ؛ ليأخذك هذا المنهج إلى دار السلام والسلامة من الآفات. واضمن لنفسك الخروج من دار الفناء والأغيار ، وَضَعْ يدك فى يد من يدعوك إلى دار السلام.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ(1) وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

ودار السلام: هى الآخرة التى تختلف عن دار الدنيا المليئة بالمتاعب ، هذه الدنيا التى تزهو وتتزخرف ، وتنتهى إلى حطيم ؛ لذلك يدعو الله تعالى إلى دار أخرى ، هى دار السلام ؛ لأن من المنغِّصات على أهل الدنيا ، أن الواحد منهم قد يأخذ حظه جاهاً ، ومالاً ، وصحة ، وعافية ، ولكن فى ظل أرق من أمرين: الأول هو الخوف من أن يفوته هذا النعيم وهو حى ، والثانى أن يفوت هو النعيم.

أما الآخرة فالإنسان يحيا فيها فى نعيم مقيم ؛ ولذلك يقول الله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾.

وهذه الآخرة لن يشاغب فيها أحدٌ الآخر ، ولن تجد من يأكل عرق غيره

---

(1) دار السلام هى الجنة ؛ لأنها دار الأمان والسلامة من كل سوء يقول الحق: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ .. ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام] وسلم تأتى لمعان منها: ألقى السلام وانقاد وأذعن ، وسلمه الله: أنجاه. وسلمه الأمانة أوصلها لصاحبها ، وأداها فهى مُسلَّمة ، يقول الحق: ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا .. ﴿٧١﴾﴾ [البقرة] وأسلم قلبه: أخلص. وأسلم: دخل فى دين الإسلام ، يقول الحق: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة] القاموس القويم جـ ٢ صـ ٣٢٥

مثلما يحدث فى الدنيا [١] ، وإذا كنا نعيش فى الدنيا بأسباب الله ، فنحن فى الآخرة نعيش بالله سبحانه وتعالى، فكل ما يخطر على بالك تجده .

فإذا كانت الأسباب تتنوع فى الدنيا وتختلف قدرات الناس فيها مع أخذهم بالأسباب ، فإنهم فى الآخرة يعيشون مع عطاء الله سبحانه دون جهد أو أسباب ؛ لأن دار السلام هى دار الله تعالى ، فالله تعالى هو السلام.

ولله المثلى الأعلى ، فأنت إذا دعاك ولى أمرك إلى داره ، فهو يُعدّ لدعوتك على قدره هو ، وبما يناسب مقامه ، فما بالك حين يدعوك خالقك سبحانه وقد اتبعت منهجه. إنه سبحانه هو القائل:

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَاكِهُونَ [٢] (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِى ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ [٣] (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨)﴾. [يس]

وهذا السلام ليس من البشر ؛ لأن من البشر من يعطيك السلام وهو يكنّ لك غير السلام ، أو قد يعطيك السلام وهو يريد بك السلام ، ولكنه

(١) وفى هذا يقول رب العزة عن أهل الجنة : ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا (٢٦)﴾ [الواقعة] . فهم لا يسمعون فيها كلاماً عبثاً أو فيه قبح ، بل قولهم لبعضهم سلاماً سلاماً ، أى : تسليمهم على بعضهم ، فهى دار السلام .

(٢) ﴿فِى شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ : مرفّهون ناعمون بنعيم الجنة . قال تعالى : ﴿فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ .. (١٨)﴾ [الطور] . [اللسان : مادة (فكه) - بتصرف].

(٣) ﴿عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ قال المفسرون: الأرائك: السُّرُر فى الحجال ، وقيل: هى الفُرُش . وقيل: الأريكة: سرير منجَّد مزين فى قُبَّة أو بيت . وقيل: الأريكة: هو كل ما اتكىء عليه من سرير أو فراش أو منصة . قال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ .. (٣١)﴾ [الكهف]. [اللسان: مادة (أرك) - بتصرف].

من الأغيار [1] ؛ فيتغير فلا يقدر أن يعطيك هذا السلام ، لكن إذا ما جاء السلام من الله تعالى ، فهو سلام من رب لا يعجزه شيء ، ولا يُعوزه شيء ، ولا تلحقه أغيار ؛ لذلك يقول سبحانه: ﴿ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم.. (٢٤) ﴾. [الرعد]

والملائكة حين يقولون ذلك إنما أخذوا سلامهم من باطن سلام الله تعالى ، وحتى أصحاب الأعراف [2] الذين لم يدخلوا الجنة ، ويرون أهل الجنة وأهل النار ، هؤلاء يلقون السلام على أهل الجنة. وهكذا يحيا أهل الجنة في سلام شامل ومحيط ومطمئن ؛ لأن الداعي هو الله سبحانه ، ولا أحد يجبره على أن ينقض سلامه.

ودعوة الله سبحانه هي منهجه الذي أرسل به الرسل ؛ ليحكم به حركة الحياة حركة إيمانية ، يتعايش فيها الناس تعايشاً على وَفْق منهج الله تعالى ، بما يجعل هذه الدنيا مثل الجنة ، ولكن الذي يرهق الناس في الدنيا أن بعض الناس يعطلون جزئية أو جزئيات من منهج [3] الله سبحانه.

وأنت إذا رأيت مجتمعاً فيه لون من الشقاء في أي جهة ؛ فاعلمْ أن جزءاً من منهج الله تعالى قد عُطِّل.

---

(١) فالسلام عند أهل الأغيار يتغير حسب المصالح ، أما سلام الله فلا يلحقه التغيير ولا التبديل ، لأن وعده الحق ، وقوله الصدق ، وهو السلام ، ومنه السلام.

(٢) أصحاب الأعراف هم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، فيقفون بين الجنة والنار يوم القيامة ، ينظرون إلى أهل هذه وأهل تلك ، ينتظرون عفو الله عنهم ، وفيهم قال سبحانه : ﴿ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) ﴾ [الأعراف].

(٣) منهج الله تعالى: طريقه وشريعته ، قال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا (٤٨) ﴾ [المائدة]. فقد وضع منهجاً للروح سمواً ، وللقلب حباً ، وللنفس سكينة وللعقل فكراً وتأملاً وللجسم حركة. ومنهج هذه الطاقات يوجد مجتمع الربوبية بعقيدة توحده ، وعبادة تحبه وتخشاه ومعاملات بأخلاق فإذا اختلت طاقة من هذه الطاقات بسبب نسيانه أو غفلة تعطل المسير في المنهج نحو الله جل علاه.

ولو أن الناس قد ساروا على منهج الله سبحانه وتعالى ؛ لما كان بالوجود عورة واحدة ؛ فالذى يُظهر عورات الوجود هو غفلة بعض الناس عن منهج الله سبحانه.

وأنت إنْ رأيت فقراء لا يجدون ما يأكلونه ؛ فاعلمْ أن هناك مَنْ عطَّل منهج الله تعالى ، إما من الفقراء أنفسهم ، الذين استمرأ[1] بعضهم الكسل ، وإما أن الأغنياء قد ضنوا برعاية حق الله تعالى فى هؤلاء الفقراء ؛ وبذلك يتعطل منهج الله سبحانه.

أما إذا سيطر منهج الله تعالى على الحياة ؛ لصارت الحياة مثل الجنة.

ويقول الحق سبحانه: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ونعلم أن الهداية نوعان: هداية الدلالة بالمنهج ، فمن أخذ المنهج سهَّل الله تعالى له طريق الصراط المستقيم ؛ وبذلك انتقل العبد من مرحلة الهداية بالدلالة إلى الهداية بالمعونة ، وحين تقوم القيامة يهديهم الله سبحانه بالنور إلى الجنة: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ .. ۝٩﴾. [يونس]

إذن: فمن أخذ هداية الله بالدلالة وهى المنهج ، واتبع هذا المنهج ؛ فالحق سبحانه يجعل له نوراً يسعى بين يديه: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ .. ۝٨﴾. [التحريم]

والحق سبحانه يقول: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ ۝٢٥﴾ [يونس]

لأن كل شىء فى هذا الكون لا يخرج عن مشيئته سبحانه ، فالقوانين لا تحكمه ، بل هو الذى يحكم كل شىء.

وإذا كان الله قد بيّن من شاء هدايته ، فهو أيضاً قد بيّن لنا من شاء إضلاله بقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ۝٣٧﴾. [التوبة]

---

(١) استمرأ: استحسن الشىء واعتاده. [اللسان: مادة (مرأ) - بتصرف].

وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)﴾. [التوبة]

إذن: فقد بيّن الحق سبحانه لنا من الذين يهديهم إلى الجنة ومن الذين لا يهديهم، فلا يقولن أحد: وما ذنب الكافرين والفاسقين[1]؟ لأن الحق سبحانه قد بين منهجه، فمن أخذ به؛ جعل له نوراً يسعى بين يديه، ويدخله الجنة.

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه:

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦)﴾

وكلمة ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ مثلها مثل قولنا: «امرأة فُضْلى» ونقول أيضاً: امرأة كبرى، وهى أفعل تفضيل، أى: مبالغة فى الفضل[2].

والمقصود بقوله سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ﴾ أى: بالغوا فى أداء الحسنات، والحسنة كما نعلم بعشرة أمثالها، وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ فما هذه الزيادة؟

نقول: هى عطاء زائد فى الحسنات، فهناك «كادر» للجزاء بالحسنات، يبدأ بعشرة أمثال الحسنة ويصل إلى سبعمائة ضعف، أما السيئة

---

(١) يقول الحق سبحانه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦)﴾ [طه].

(٢) أفعل التفضيل: اسم مشتق على وزن (أفعل) يدل غالباً على أن شيئين اشتركا فى معنى، وزاد أحدهما فيه على الآخر. مثل (أحسن - أفضل - أكبر) فى مثل قولنا: نعيم الآخرة أحسن وأفضل وأكبر من متاع الدنيا. وعند التأنيث تصاغ الكلمة على وزن (فُعْلَى) مثل: (حُسْنَى - فُضْلَى - كُبْرَى). انظر تفصيل ذلك فى (النحو الوافى: ٣/ ٣٩٤ - ٤١٥).

فبواحدة [١]. وهذا «الكادر» لا يحدد فضل الله تعالى ، بل الحق سبحانه يزيد من فضله مَنْ يشاء.

ولذلك يجب ألا نفرق بين عدل الله سبحانه فى أن الشىء يساوى الشىء ، وفضل الله تعالى فى أن يجزى على الشىء الحسن بأضعاف أضعاف ما نتصور.

والحق سبحانه يقول: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا.. (٥٨)﴾ [يونس]

وقال قوم من العارفين بالله: إن الزيادة المقصودة هى فى العشرة الأمثال والسبعمائة ضعف ، والفضل هو ما فوق ذلك.

وهكذا تتعدد مراتب الجزاء : فهناك العشرة الأمثال ، والسبعمائة ضعف ، والحسنى ، والزيادة عن الحسنى ، وقد قال رسول الله ﷺ فى ذلك: «إذا دخل أهل الجنة الجنة قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم. فيقولون: ألم تُبيِّض وجوهنا ؟ ألم تُدخلنا الجنة وتُنجِّنا من النار ؟ قال: فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل» [٢].

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أى: لا يغطى وجوههم غبار ، وهو سبحانه القائل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾. [القيامة]

---

(١) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : قال الله عز وجل: «إذا هَمَّ عبدى بحسنة ولم يعملها كتبتها له حسنة ، فإن عملها كتبتها عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف ، وإذا هم بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه ، فإن عملها كتبتها سيئة واحدة» أخرجه مسلم فى صحيحه (١٢٨) والبخارى فى صحيحه (٦٤٩١) بلفظ آخر عن ابن عباس.

(٢) أخرجه مسلم (١٨١) وأحمد فى مسنده (٤/ ٣٣٢) والترمذى فى سننه (٢٥٥٢) من حديث صهيب الرومى.

وهو سبحانه القائل : ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ[1] (٤١) ﴾. [عبس]

وترهقها : أي : تغطيها ، وقترة تعنى : الغبار ، وهى مأخوذة من القُتار وهو الهواء الذى يمتلىء بدخان الدُّهْن المحترق من اللحم المشوى ، وقد تكون رائحته أخَّاذة ويسيل لها اللعاب ، ولكن مَنْ يوضع على وجهه هذا القتار يصنع له طبقة سوداء.

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ (٢٦) ﴾ [يونس]

لأنهم اتقوا الله سبحانه وأحبوا منهجه.

ويقول الحق سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ .. (١٠٦) ﴾

[آل عمران]

فليس المقصود هو لون الوجه فى الدنيا ؛ لأنك قد تجد إنساناً أسود اللون لكنه بالإيمان قد أشرق وجهه ، وأحاطت ملامحه هالة من البهاء. وهناك من هو أبيض الوجه ولكنه من فرط معصية الله صار وجهه بلا نور.

ويقول الحق سبحانه : ﴿ أُوْلَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) ﴾

[يونس]

أى : أنهم ملازمون للجنة ملازمة الصاحب لصاحبه ، أو «أصحاب الجنة» أى : مَنْ يملكونها.

يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

---

(١) القَتَرُ : جمع القَتَرة ، وهى الغَبَرة. وفى التهذيب : القترة غبرة يعلوها سواد كالدخان ، والقُتار : ريح القِدْر ، وقد يكون من الشِّواء والعظم المحترق ، وريح اللحم المشوىّ. وفى حديث جابر ، رضى الله عنه : لا تؤذِ جارك بقُتار قِدْرك. [اللسان : مادة (قتر)].

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧) ﴾

وما دام الحق سبحانه قد جاء بمن دعاهم إلى دار السلام وأعطاهم الجنة جزاء للعمل الحسن ، فذكر مقابل الشيء يجعله ألصق بالذّهن ، والحق سبحانه هو القائل : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً .. (٨٢) ﴾ . [التوبة]

وأيضاً من أمثلة المقابلة [1] في القرآن قوله الحق : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) ﴾ [الانفطار]

إذن : فمجيء المقابل للشيء إنما يرسّخه في الذهن ؛ ولأن الحق سبحانه قد تكلم عن الدعوة إلى دار السلام ، ومن دخل هذه الدعوة ؛ فله الجنة خالداً فيها ، لا يرهق وجهه قتر ولا ذلة ، كان لا بد أن يأتي بالمقابل ، وأن يبشّع رفض الدعوة لدار السلام ، ويحسّن الأمر عند من يقبلون الدعوة .

ولا بد - إذن - أن يفرح المؤمن ؛ لأنه لن يكون من أهل النار ، ولا بد أيضاً أن يخرج بعض من الذين ضلّوا عن الغفلة ؛ ليهربوا من مصير النار ، ويتحولوا إلى الإيمان .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ .. (٢٧) ﴾ [يونس]

---

(١) المقابلة نوع من أنواع المطابقة أو الطباق ، ويقصد بها الجمع بين متضادين في الجملة ، فالمقابلة هي أن يُذكر لفظان فأكثر ، ثم أضدادهما على الترتيب . ومن أمثلتها أيضاً قوله تعالى : ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ (١٥٧) ﴾ [الأعراف] . انظر : الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٣/ ٢٨٤ - ٢٨٧) .

ونحن نعلم أن الكسب إنما يكون فى الأمر الفطرى ويناسب الطاعات ؛ لأن الطاعة أمر مناسب وملائم للفطرة ، فلا أحد يستحى أن يصلِّى، أو يتصدق ، أو يصوم ، أو يحج ، لكن من الناس من يستحى أن يُعرف عنه أنه كاذب ، أو مُرابٍ ، أو شارب خمر .

والإنسان حين يرتكب السيئة يمر بتفاعلات متضاربة ؛ فالذى يسرق من دولاب والده وهو نائم ، تجده يتسلل على أطراف أصابعه ويكون حذراً من أن يرتطم بشىء يفضح أمره ، كذلك الذى ينظر إلى محارم غيره .

كل هذا يدل على أن ارتكاب الشىء المخالف فيه افتعال ، أى : يحتاج إلى اكتساب ، ولكن الكارثة أن يستمر الإنسان فى ارتكاب المعاصى حتى تصير دُرْبة ، ويسهل اعتياده عليها ؛ فيمارس المعصية باحتراف ؛ فتتحول من اكتساب إلى كسب .

أو أن يصل الفاسق من هؤلاء إلى مرتبة من الاستقرار على الانحلال ؛ فيروى ما يفعله من معاصٍ وآثام بفخر ، كأن يقول : « لقد سهرنا بالأمس سهرة تخلب العقل ، وفعلنا كذا وكذا » ، ويروى ذلك ، وكأنه قد كسب تلك السهرة بما فيها من معاصٍ وآثام .

ومن رحمة الله سبحانه بالخلق أنه يجازى مرتكب السيئة بسيئة مثلها ، فيقول سبحانه : ﴿ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾ ، وتتجلى أيضاً رحمة الحق سبحانه وتعالى حين يعطى من لا يرتكب السيئة مرتبة ؛ فيصير ضمن من قال عنهم الحق سبحانه : ﴿لا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ﴾ لكن الذين لم يهتدوا منهم من يقول الحق سبحانه عنهم : ﴿مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أى : لن يجيرهم أحد عند الله تعالى ، ولن يقول أحد لله سبحانه : لا تعذِّبْهم .

أو أن (لا عاصم لهم) بمعنى : أن الله تعالى لن يأمر بعد ذلك بألاَّ يُعذَّبوا .

ولا يقتصر أمرهم على ذلك فقط ، بل يقول الحق سبحانه : ﴿ **كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا** ﴾ أى : كأن قطعاً من الليل المظلم قد غطت وجوههم ، ويكون مأواهم النار ﴿ **أُوْلَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ .

هذا هو حال الذين كذَّبوا بآيات الله تعالى وكذبوا الرسل ، وتأبَّوا عن دعوة الله سبحانه وتعالى إلى دار السلام واتبعوا أهواءهم واتخذوا شركاء من دون الله تعالى .

وشاء الحق سبحانه أن يُجلِّى لنا ذلك كله فى الدنيا ؛ حتى يكون الكون كله على بصيرة بما يحدث له فى الآخرة ؛ لأنه نتيجة حتمية لما حدث من هؤلاء فى الدنيا .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

والحشر : هو أخذ الناس من أمكنة متعددة إلى مكان واحد ، وستقذف هذه الأمكنة المتعددة مَنْ فيها مِنَ الكَفَرة ؛ ليصيروا فى المكان الذى شاءه الله سبحانه لهم .

وكلما اقترب الناس من هذا المكان ؛ ازدحموا ، وذلك شأن الدائرة